
مجلة الشهاب • المجلد: 08، العدد: 03 (2022م) • ص ص 485 - 494
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

مفهوم التصوف وأنساقه المعرفية عند الشيخ عبد الحليم بن سماية

The Concept of Sufism and its Cognitive Systems for Sheikh Abdul Halim Bin Samaya

د/ رقية شروانة *

المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار- قسنطينة (الجزائر)
che_rouana@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/10/18 | تاريخ القبول: 2022/11/02 | تاريخ النشر: 2022/11/12



ملخص: انبرى الشيخ عبد الحليم بن سماية إلى خوض معركة فكرية لتصحيح المفاهيم وإعادة الاعتبار للتصوف النقي بعد سنوات من التزييف التي قادها الاستشراق الفرنسي وأعوانه لخلق منظومة فكرية عميلة للاستعمار تسعى لزرع روح الاستسلام في نفسية الشعب الجزائري.

لقد شكلت هذه التجربة خصوصية في حركة الإصلاح نظرا لحجم المسؤولية التي تحملها الشيخ عبد الحليم بن سماية في حياته ودفع قواه العقلية ثمنا لها، حيث فقد رشده وأخذ يهيم في شوارع مدينة الجزائر وخارجها في آخر حياته رحمه الله.

وتقديرا للريادة والسبق في الأفكار التي نادى بها والتي كان لها تأثيرها في السياسة والاجتماع والتربية تقف هذه المقاربة لرصد معالم هذا التحول الفكري والثقافي في تاريخ النخبة الجزائرية في صراعها مع الاستعمار، وبيان الوعي الصوفي ومقاماته، وفهم دور الصوفي وأخلاقه وسلوكاته.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح؛ التصوّف؛ التحول الفكري؛ الأنساق المعرفية.

Abstract : Sheikh Abdel Halim bin Samaya embarked on an intellectual struggle to correct concepts and restore pure Sufism after years of distortion led by French Orientalism in order to create an intellectual colonialism puppet system that aimed to instill a submissive spirit in the psyche of the Algerian people. This experience constituted a specificity within the reform movement due to the amount of responsibility that Sheikh Abdel Halim bin Samaya bore in his life, which led to pay his mental powers for, as he lost his senses and began wandering in the streets of Algiers by the end of his life. Recognizing the leadership and precedence of his ideas that had an influence on politics, sociology and education, the present paper intends to scrutinize the features of this intellectual and cultural shift in the history of the struggle of the Algerian elite against colonialism, to elucidate the Sufi awareness and its positions and to understand the role of the Sufi, his morals and behavior.

Keywords: Reform; Sufism; intellectual transformation; cognitive systems.

* المؤلف المراسل

1. مقدمة

يعدّ التصوّف من أقدم المسالك المتديّنة التي عرفتها المجتمعات على اختلاف أديانها ومعتقداتها، حيث إنّ فكرة معانقة الحياة الروحية والارتماء في أحضانها والنأي بالنفس عن النزوع المادي والتحرر من الانغماس في القيود المادية هي فكرة تكاد تكون جامعة بين المتصوّفة، فتتقاطع مفاهيم السمو بالنفس، والتأمّل الروحي، والزهد في لذات الجسد، وسبر أغوار النفس والعقل الباطن.

وتمثّل تجربة أعلام التصوّف الإسلامي نموذجا لذلك الصفاء الروحي الذي يسمو بالنفس الإنسانية إلى أسمى درجات رسوخ العقيدة الإيمانية، وجهاد النفس، والاجتهاد، وإخلاص العبادة، مع تفاوت تلك التجارب في تجسيدها لهذا الفكر التصوّفي بين شخصية وأخرى سيما فيما يخصّ علاقة المتصوّف بالواقع الاجتماعي الذي يتجاذبه الزهد المفرط والاعتدال في اتخاذ درجة من الالتزام بقضايا الإصلاح الديني والاجتماعي. ويأتي بحثنا لمفهوم التصوّف عند العالم الجزائري "عبد الحليم بن سماية" في هذا المنحى الذي يتحرّى تقاطعات وخصوصيات التجربة الصوفية. فما هو مفهوم التصوّف عند هذا العالم، وما وجه التميّز في فكره وممارسته التصوّفية ؟

2. حياة "بن سماية" بين المنشأ الديني والمنزع الصوفي:

في الأجواء الدينية المحافظة التي تميزت بها حياة الجزائريين بعد تغلغل الاستعمار الفرنسي في ربوع الجزائر نشأ عبد الحليم بن سماية (1866–1933) فحفظ القرآن الكريم والمتون في صغره، ثم سافر إلى تونس لاستكمال الزاد العلمي والمعرفي الذي تميزت به أجواء الزيتونة آنذاك، وتكاد تجمع الدراسات التي تناولت هذه الفترة أن المنشأ الديني خيار لابد منه لكل شاب يريد التميز والنجاح. (الجيلالي، 1973، ص ص 199–212)

إن الأخبار التي رواها الشيخ عبد الرحمن الجيلالي عن شيخه توضح لنا جوانب مختلفة من شخصيته، وتكشف وجوها من سلوكه الديني والاجتماعي وأثر السلوك الصوفي في حياته، فهو ليس من الصوفية الذين يعرضون عن الكسب من عمل أيديهم بدعوى التوكل بل يمارس التجارة في دكان اكتراه، ويعيش مع الناس ويخالطهم، قبل أن ينتقل للتدريس بالجامع الجديد بالعاصمة. "وإذا ذكر الشيخ عبد الحليم بن سماية لدى من رآه أو عرفه أو عاصره أو سمع به فسرعان ما ينبهر لسماع اسمه وينصرف ذهنه في الحال إلى ما يتصوره أو يتمثله في ذهنه أو مخيلته من المثل العليا في النبوغ والفضل والعلم الصحيح والتقوى والشجاعة والوطنية والكمال النفساني وطهارة الروح ودماثة الأخلاق والنبل والنزاهة والإباء، وهذا أمر يعترف به حتى الأجانب ذوو النفوذ من خصومه الفرنسيين المعمرين ممن كان يجهر أمامهم وعلى مرأى ومسمع منهم بكلمة الحق فيبهتهم، ولا يحجمه عن الصراحة بذلك هيبة مهيب ولا رهبة رهيب، إلى ما

أوتيه من ثبات في الجنان وسحر في البيان". (الجيلالي، 1973،ص ص199-212)

3. محاوراته الفكرية والفلسفية:

للشيخ عبد الحليم بن سماية محاوراته التي بثها في الساحة الجزائرية متناولا فيها قضايا العصر، وذلك بعد أن شدّد الاستعمار الخناق على الفكر النزيه ومنح العملاء أرضية التواصل مع المواطنين، من خلال زرع أفكار الخنوع والاستسلام، "وألوان النميمة والتفاهات وتناقضات الحياة الجزائرية وبشاعتها وعفونتها" (بن نبي، 2016، ص55).

وفي محاوراته الفكرية والفلسفية يكشف الشيخ عبد الحليم بن سماية عن الوعي المتقدم بقوة المصطلحات ودقة توظيفها بقوة المعطيات والمؤشرات في أتون تلك المعركة الوجودية مع الاستعمار.

3 ـ 1 الإنسان والقوة الجاذبية:

في مقالته (القوة الجاذبية) (إحدادن، 2002، ص22) إشارة واضحة إلى دراسة متقدمة للنفس البشرية ومكوناتها الوجدانية التي لا ترتبط بمذاهب اللذة كما عرفتها بعض المذاهب الغربية، وحضور العقل والاستدلال المنطقي ودوره ومرتبته وموقعيته.

3 ـ 1 ـ 1 الفرق بين العقل والنفس:

حدد الشيخ عبد الحليم بن سماية الفرق بين العقل والنفس ضمن إطار نظري ينطوي على معلومات كفيلة بأن تفتح لنا آفاقا في فهم طبيعة الإنسان، بقوله: "هذا مما نجزم به ونعلم أن بعض العقول تنزع إلى المعالي وبعض العقول مائلة إلى الحضيض، ولئن كان الأمر كذلك فنسمي العقل حينئذ من حيث ميله إلى الكمال والمعالي عقل، ومن حيث ميله إلى النقص نفس، ويتبين لنا أن العقل والنفس شيء واحد من جهة الذات، ولا يقع الاختلاف بينهما إلا باختلاف ميلهما، فإن مال العقل إلى الكمال فهو عقل على أصله ومستحق للتسمية باسمه، وإذا مال إلى النقص سمي النفس بالعقل (إحدادن، 2002،ص23)".

كثيرا ما تقع النفس الإنسانية في حال من الجدل والتناقض فتكون مشدودة بين نعتي النقص والكمال ، والضعف والقوة ، وتتنازعها في تلك الحال حسب الشيخ عبد الحليم بن سماية قوتان جاذبتان " إحداهما تجذبه إلى العلو والأخرى تجذبه إلى الأسفل ومتى غلبت إحداهما عليه استخدمته على قانونها، فبرزت آثاره التي نزل على رتبته إلى العيان باكتساب إما ثناء جميلا وإما شنيعا، فنبحث إذا على الجاذبة التي تجذب العقل إلى الأسفل والتي تجذبه إلى العلو حتى نعلم ما هو الأولى بالاتباع والطاعة، وما هو الجدير بالهجر والترك" (إحدادن، 2002، ص23).

3 ـ 1 ـ 2 **الإنسان هو العقل الكامل**:

باستقراء منطق الفلاسفة المسلمين يرى الشيخ عبد الحليم بن سماية أن الله تعالى كرّم الإنسان بنعمة العقل على سائر المخلوقات، ومنحه حرية التفكير وحرر طاقاته الفكرية والإبداعية، "ولا ريب إن تتبع الشهوة إذا توسط بين الحق وبين العقل، كان كتوسط الأرض بين الشمس والقمر، فينخسف نور الحق تحت ظل الشهوة كما ينخسف القمر بظل الأرض، وهذا المانع يعينه من طلب الرزق، هو المانع بعينه من طلب العلم، فتجد الذي غلبت على عقله جاذبة شهوة الراحة والكسل قد فاقت شهرته بين عقله وبين طلب العلم حاجزا، أو توسطت بينه وبين عقله فينخسف نور بدوره وصار مظلما" (إحدادن، 2002، ص25).

ويشير إلى ريادة العقل وانفتاح آفاقه عندما يتعلق الأمر بالنظر في تحديد المسار الصحيح، نحو تحقيق الآمال المتواضعة للإنسان العادي في "مجتمع ينتفي فيه كل ما يعتبره الناس شرا، ولا يبقى فيه غير ما يعتبره الناس جميعا خيرا"، قائلا: "فالإنسان هو العقل الكامل الذي هذا الجسم مركب لرحله ولا يحكم مركب على راكب، وههنا دسائس أخرى تحت الشهوات ترد على من تخلص من حيلولة أرض الشهوة بينه وبين بدر عقله، لأن هذه الجاذبية السفلية في العقل" (برينتون، 1982، ص293)

ومن هناك فإن مسار العقل عند الشيخ عبد الحليم بن سماية هو المسار الذي أطره محمد عبده وسار على دربه نخبة العلماء المصلحين الذين يؤمنون "بالمنطق الذي يخدم العلم المطلق" (العروي، 2001، ص151)

3 ـ 1 ـ 3 **أبدية العداوة بين النفس والإنسان**:

النفس من أكثر المواضع خصوبة في الدراسات المتعلقة بالفكر الصوفي، بحكم طبيعتها "التي تقترب من كونها وسيطا بين الجسد والروح، فهي تشبه الروح في كونها أثرا لا مادة، وتقترب من الجسد في كونها ناتجة عن أجزاء معينة منه" (حمودة، 1990، ص25). ولذلك راح الشيخ عبد الحليم بن سماية يستعرض تاريخ العلاقة بين النفس والإنسان منطلقا في ذلك من تصورات القرآن الكريم، الذي خبر هذه العلاقة بطباعها وطبيعتها، قائلا: "لا يوجد للإنسان عدو مثل نفسه، فإنه إذا تعلم طرفا من العلوم جذبته الجاذبة السفلية إلى نوع آخر من الكسل، وتوسطت بينه وبين المقام الذي هو أعلى من مقامه في العلم، وسبب توسطها والحالة هذه مع أنه قد كان فارقها وعلا عنها هو، رجوعه إليها من حيث لم يشعر وذلك لأنه لما حصل طرفا من العلوم رضي عنها وبمجرد ما رضي عنها طاوع جذبها له إلى الكسل والتخلي عن العمل فلا غرو أن تعود متوسطة بين عقله وبين هذا النور العلمي الأقوى من الأول" (إحدادن، 2002،ص25) .

3 ـ 1 ـ 4 **الإنسان بين التوكّل والاتكال**:

بيّن الشيخ عبد الحليم بن سماية رؤيته للتوكّل: "التوكل مما أمر به الشرع ومدح به، فيستنتج الفهم

حينئذ أن الكسل كما يدعو إلى تعطيل الجسم من الحركة يستتبع العقل أيضا في التعطيل عن الإدراك، فإن الشرع لم يأمر مخلوقا بالكسل وترك العمل، بل حث على العمل غاية الحث وكفاك من حثه على العمل والاكتساب، إنه جعل الكسب والكد على العيال من أشرف العبادات، وليس أمره بالتوكل لأجل إبطال العمل بل لفرضهما معا في قرن واحد، لأن التوكل إذا قرن بالعمل زاد العامل في عمله نشاطا "(إحدادن، 2002، ص24).

وقرر حقيقة مرتبطة بالمفاهيم الكبرى للدين والتي تدخل في نطاقها آخذا بعين الاعتبار الدلالات الاصطلاحية ضمن أولوياته بقوله: "فالتوكل لتقوية العمل لا لتوهينه، ومن فهم خلاف ذلك فقد هدم الدين باسم الدين، والذي جره إلى ذلك كله إنما هو غلبة راحته على عقله" (إحدادن، 2002،ص 25).

3 ـ 1 ـ 5 **الإنسان وسلطان العلم**:

يعتبر الشيخ عبد الحليم بن سماية العلم أساس الصلاح في الدنيا والآخرة، ولذلك شغل نفسه به دراسة وتدريسا، وسعى إلى توثيق ذلك بشكل مستفيض حيث يقول: "لكل علم منفعته الخاصة به، فعلم النحو والصرف يحفظ التراكيب والمفردات من الخلل، وعلم البلاغة لعلم أسرار التركيب، وعلم الخط للتزيين، وعلم الشعر والقريض للتأثير في القلوب، وعلم العروض والقوافي للوزن، وعلم التاريخ للعبرة، وعلم المنطق لحفظ الذاكرة، وعلم الكلام للاعتقاد الحق ولمعرفة النفس ما لها وما عليها، ولمعرفة جميع ما يقوم به أساس النظام بين الخلائق، ومعرفة الأصول لبيان وجه استنباط الفروع ومصطلح الحديث لمعرفة الموضوع من الصحيح من الأصول، ومعرفة الفلك والاهتداء بها في الأوقات والأسفار" (إحدادن، 2002، ص26).

ما نخلص إليه هنا أن من أهم وظائف العلم تنوير الإنسان ومساعدته على إدراك طبيعة الأشياء، وتجسيد اهتماماته وطموحاته على أرض الواقع "ولذلك نرى كثيرا من الناس علموا منفعة العلم فدأبوا على السعي وراءه وأفنوا فيه نفيس أوقاتهم، ونرى كثيرا من الناس بضد ذلك عن طلب العلم متقاعدين، وعن العمل متكاسلين" (إحدادن، 2002،ص25).

3 ـ 2 **التصوف والصوفية**:

يتطرق الشيخ عبد الحليم بن سماية في مقالة (التصوف والصوفية) (إحدادن، 2002،ص29)، إلى دراسة لمنطلقات أساسية في المفاهيم الصوفية وبيان أبعادها وحدودها وسعيا لضبط المقامات والأحوال وبيان العلاقة القائمة بينها، عبر تسليط الضوء على أنطولوجيا التصوف ونظرية الوجود العرفانية، مشددا كما يقول مالك بن نبي: "على أهمية التعاريف التي نمنحها نحن للأشياء محذرا في الوقت نفسه من تلك نستقيها من الكتب، على اختلاف اختصاصات أصحابها" (بن نبي، في الحضارة والإيديولوجيا، 2014، ص20).

3 ـ 2 ـ 1 مفهوم الصوفية ومهمة الصوفي:

استوثق الشيخ عبد الحليم بن سماية معرفته بالتصوف من تعليمه في صباه الذي استقاه من كبار المشائخ أمثال والده الشيخ علي بن سماية، وأستاذه الشيخ السعيد بن الزكري، والشيخ علي بن حمودة، والشيخ محمد بن عيسى الجزائري، ومن مطالعاته ومناقشاته مع العلماء أمثال: الشيخ الإمام محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد الخضر حسين.

وتبين أن للتصوف دلالاته ومحمولاته التي تندرج كلها ضمن الإطار السليم لفهم الإسلام، وأن أي حياد عن هذا الإطار هو حياد عن طوق الأمان.

وحاول أن يتتبع مفهوم الصوفية في مصادره الإبستيمولوجية حتى لا تلتبس علينا النتائج التي يمكن أن نتوصل إليها "فالصوفية قوم نفعوا وانتفعوا، إذ عملوا وتخلقوا وبتخلقهم بالأخلاق الحميدة تحققهم بالعلوم صفوا من الأخلاق الذميمة فسموا بالصوفية وعرفوا حق المعرفة علما ووجدانا وذوقا فسموا بعلماء الحقيقة، فهم ما جلسوا إلا أنسوا وما أرشدوا إلا هادوا وما عملوا إلا أخلصوا وما طلبوا إلا برءوا" (إحدادن، 2002، ص29)

وركز الشيخ عبد الحليم بن سماية على السلوك الصوفي الذي يرى فيه ثمرة الصلاح والتقوى "فإذا اشتهر أحدهم بالنفع لعباد الله والإرشاد لخلقه، في قطر من الأقطار هرعت الناس إلى العكوف ببابه والوقوف على أعتابه، لما يظهر من آثار الفضل التي تطلع طلوع الشمس وتنزل منزلة الغيث بعد القحط، وهو إذا بلغ إلى ذلك المقام وحصلت له حقائق العلم وعلمه الله من العلم ما جناه من ثمرة العمل، قد صار العلم أمانة في عنقه، فلا بد أن يؤدي إلى الخلق الأمانة حذر من الكتمان والخيانة وخوفا من وعيد الحديث «من علم علما وكتمه ألجمه الله بلجام من النار»" (إحدادن، 2002، ص29) .

ومن مجمل التصورات السابقة يمكن القول بناء على هذه المعرفة إن الصوفية هي عودة إلى المنابع الأولى للإسلام، في إشارة إلى النزعة الروحية وخصوصيتها التي تتميز بالبساطة والفطرة السليمة، ورفض للواقع المادي الذي كبلته القوانين المتعددة والعوامل الدخيلة وانتقصت من صفائه قواعد السلوك الاجتماعي التي يغلب عليها الافتعال والمجاملة.

3 ـ 2 ـ 2 اليقين والامتلاء:

برهن الشيخ عبد الحليم بن سماية أن الاشتغال بالله سيخرج ما عداه من القلب "إن القلب لا يمكن أن يبقى فارغا أبدا فهو إما معمور بذا أو بذاك إن حل فيه الرب خرج منه سواه وإن حل فيه سواه خرج منه الإله ولنفهم معنى حل وخرج فإنها لا تشتبه على عاقل (إحدادن، 2002،ص30) .

يؤكد الشيخ أن جوهر التصوف هو تغيير واقع الإنسان وكيانه الروحي إحداث التحول الوجودي نحو اليقين حيث يقول: "إن أول ما يرشد إليه الدال على الله ذكر الله على الطريق الذي سلكه وأحسن من نفسه بالانتفاع به وعلى القدر الذي يراه صالحا فمن يرشده ثم يأخذ في تهذيبه وترشيحه بالعلوم الشرعية والإرشادات التي توصله إلى مقام المعرفة بربه والتخلق بالأخلاق التي ترتضيه، وهكذا إلى أن يرفعه من طينة الأوحال ويقعده مقعد الرجال ويقول له ها أنت وربك لكل مرشد أذكار وأراد تختلف بالصيغ والقدر والوقت والكيفية كلها راجعة إلى معنى الذكر العام المأمور به في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب، الآية: 41]، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف، الآية: 205]، وأنظر إلى تذييل هذه الآية الكريمة بالنهي عن الغفلة عن ذكره تورث نسيانه وقطيعته والله تعالى يقول في حق أقوام هم كذلك: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر الآية: 19] (إحدادن، 2002، ص 31) .

3 . 2 . 3 **طرق ذكر الله**:

حاول الشيخ عبد الحليم بن سماية ترسيخ ثقافة ذكر الله، وقارن بينهما وبين مظاهر الغلو التي تعيشها الطرق الصوفية أثناء انعقاد حلقاتهم التي تخرج عن سمت مجالس الذكر الجادة إلى الاختلالات والملابسات الحافة بحلقات الرقص والانفعال والإغماء وغير ذلك من مدارات وطقوس البدع والخرافات.

حيث يؤكد على حضورها الكامن وتأثيرها الفعال رغم أن: "القصد من ذكر الله استحضار عظمته والقصد من إحضار عظمته إقامة وازع على القلب من هيبة الجبار ومراقبته حتى يقف عند المأمور، ويكف عن جميع الشرور ،ولا يسخفنك المنافقون الذين يتخذون عبادة الله شبكة للأطماع وذريعة للوصول إلى الحظوظ النفسية" (إحدادن، 2002، ص24) .

وفي أجواء السنة النبوية وتطبيقاتها حول فن الذكر والدعاء، يقول: "وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه كل واحد بصنف من الذكر ليقع القيام بجميع أذكار الله تعالى، ثم كل من اتبع ذكرا من تلك الأذكار بالرواية والسند ...فهو قائم بصنف مما يشمله نوع الذكر، وذلك الصنف طريق له" (إحدادن، 2002، ص34).

4 . 2 . 3 **المحافظة على الصلاح**:

حرص الشيخ عبد الحليم بن سماية على تبيين طرق المحافظة على الصلاح وآليات تنفيذها، قائلا: "وكما أن أهل المكارم من كل مكرمة، لا يجوز لصاحبها أن يدعها لتلبس لمن ليس من أهلها، كذلك لا يدع العاقل يتلبس به أهل الباطل بادعائه، فعلى كل من أراد خلاص نفسه أن يسعى بقدم الصدق ويخلص

وجهته للحق، ويعامل كل من تظاهر بالحق على مقتضى ظاهره، ولا يتتبع باطن مخلوق، فإنه مسبر عميق ومشكل عويص، ومتى كان الظاهر محفوظا كانت غوائل الباطن مأمونة، فإن المحافظة على ما يظهر من الصلاح كالسد بين يأجوج ومأجوج لا نحن نهدمه ولا هم يستطيعون له نقبا، ولقد سبرت الإخوان واختبرت ما شان وزان، فوجدت بعضهم كالمسك ما حك إلا ازداد تضوعا، وبعضهم كالروث المفضض، كل ذلك تابع لصفاء سريرته وكدرها على أنه قد يصفو الكدر ويتكدر الصافي وتنقلب الضمائر وتتلون الأحوال" (إحدادن، 2002، ص33) .

وركز عليها بحيث يعتبرها قضية محورية تتوازى مع ثقل القضية، لأنه وكما يعلن "وكل مخلص في عبادة ربه وإتباع طريقته هو عالم بهذا المعنى، ولذلك تجد أن جميع المخلصين قد رفع بينهم الشقاق والذين هم دخلاء في هذا المعنى ما بينهم إلا الشقاق وعد الوفاق شأن كل شيء تجد عقلاءه متيقنين وجهلاء متمزقين، ولا يعوزك وجود هذا في كل حرفة ومهنة " (إحدادن، 2002 ،ص34) آخذا بعين الاعتبار المحافظة على الصلاح ضمن الأولويات "إلا أن طرق الوصول إلى الله وإن اختلفت كيفياتها حيث كان المطلوب بها الوصول إلى من وسع كل شيء رحمة وعلما، ومن شأنها واللائق بحالها أن لا يقع فيها اختلاف ولا انحراف ولا مد إبرة ولا منافرة لأن أهلها أطيار اختلفت لغاتها واتحد مكرمها ووكرها فإنها تسقى بماء واحد وتطلب التوجه إلى إله واحد" (إحدادن، 2002،ص32).

4 ـ تمثلات ونتائج

بادر الشيخ عبد الحليم بن سماية في مشروعه الإصلاحي إلى إعادة بناء منظومة المفاهيم المتداولة في زمانه بعدما أصابها الزيف والتحريف وسما بها عاليا، وذلك "بعد عقود على تكريس الواقع الاستعماري وتسهيل عملية اختراق المجتمع الجزائري، وفصله عن بنيته الأصلية، وإعطائه توجها أوروبيا" (العمري، 2008، ص 76)، وخاض معركة إعادة رد الاعتبار لحركة التصوف في شكلها النقي البعيد عن الممارسات الطرقية لإصلاح حال المسلمين وبث روح المسؤولية والنشاط فيهم، وأسس بذلك نموذجه المعرفي وحدد مقولاته المركزية ومنطلقاته الأساسية ضد الممارسات الاستعمارية الظاهرة والضمنية في إغراق المجتمع بالخرافات والمفاهيم الخاطئة، وفك الارتباط المعرفي بالأطر المرجعية والمنهجية للتجربة الاستعمارية بتعبير إسماعيل الفاروقي (التليدي، 2013، ص65).

وأعاد لسلطان العقل بنيته في طريقة التفكير واستعمالاته واستيعاب مقوماته الأساسية، مهاجما في الوقت ذاته ما روجته الطرقية وأذناب الاستعمار بين العامة في تسريب مقولة "اعتقد ولا تنتقد" مخالفا في ذلك البراديغم السائد. وهو بهذا الاعتبار "نموذج للباحث الذي يعي حضارته وثقافته وأصوله التاريخية ولديه إمكانات بحثية علمية مؤهلة، ومنهجا مستمدا من واقعه التاريخي والاجتماعي" (الحسيني، 2001).

5 ـ الخاتمة

عكست حياة الشيخ عبد الحليم بن سماية فصولا من الصراع الفكري والثقافي بين النخبة الجزائرية المستنيرة في مواجهة أعوان الاستعمار من مستشرقين وشيوخ الطرق الصوفية الموالين لهم، الذين حاولوا طمس وتكسير كل الثوابت والأنساق لثقافتنا الوطنية، وزرعوا مفاهيم خاطئة شغلت الرأي العام وألهته عن القضايا الحيوية المصيرية المتمثلة في الحرية والاستقلال.

وبين خطاب الشيخ عبد الحليم بن سماية رسوخ إيمانه بقضية وطنه وأمته وانخراطه في معركة المصير ووعيه بمدى فداحة ما يحدث من ضياع، رغم المضايقات والتهديدات التي تعرض لها.

وقد تجلت جهود الشيخ عبد الحليم بن سماية في تطوير المفاهيم والربط بين التراث العربي الإسلامي ومعطيات العلم الحديث والتمعن في حقائقه لتؤكد العمق الابستمولوجي لرؤيته وأطروحاته وكفاءاتها النظرية والمنهجية على سبر الفكر الإنساني، حيث يمكن اعتبارها مدخلا متميزا إلى فلسفة الفكر الإسلامي تتفوق على كثير من المداخل المتوافرة في عصره.

ولعل هذه الوقفة في هذا السياق يمكنها أن تجلي لنا طبيعة النموذج النظري والمنهجي التفسيري لفكر الشيخ عبد الحليم بن سماية الذي اتخذه لرفض المقولات الاستعمارية، والأفكار الجاهزة والمفاهيم المتداولة وعدم الانصياع لها. والذي عمل على ترويج كسادها وإفراغها من حمولتها وشروطها المنتجة وإسقاطها من دائرة الاهتمام.

6. قائمة المراجع

- برينتون (كرين). (1982). تشكيل العقل الحديث. *عالم المعرفة ، 82*، صفحة 293.
- بن نبي (مالك). (2014). *في الحضارة والإيديولوجيا*. (محمد بغداد باي، المترجمون) الجزائر، الجزائر: عالم الأفكار.
- بن نبي (مالك). (2016). *العفن*. (نور الدين خندودي، المترجمون) الجزائر، الجزائر: منشورات بن مرابط.
- التليدي (بلال). (2013). النموذج المعرفي لنقد الأديان عند الفاروقي. المغرب، الرباط (المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، المحرر) *إسلامية المعرفة*، 65.
- الجيلالي (عبد الرحمن). (مارس/أفريل، 1973). جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية (1866 ـ 1933).الجزائر، *مجلة الأصالة لوزارة الشؤون الدينية* ، 212.199.
- إحدادن (زهير). (2002). *أعلام الصحافة الجزائرية* (المجلد 1). الجزائر، الجزائر: دار التراث للنشر والتوزيع.

- الحسيني (رباب). (2001). نقد الغرب.مصر، القاهرة ، *أخبار الأدب* (435).
- حمودة (محمود). (1990). *النفس وأسرارها*. القاهرة، مصر: مكتبة الفجالة.
- العروي (عبد الله). (2001). *مفهوم العقل* (الإصدار 3). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- العمري (الطاهر). (2008). *الصدمة الاستعمارية وأثرها على الشعب الجزائري(1830 ـ 1852)* (الإصدار 1). مصر،الإسكندرية: دار السلام.